المحاضرة رقم 07

تحولات الرواية الجزائرية المعاصرة.

تمر كل الفنون بمراحل، وتحولات تفرضها معطيات الظروف الاجتماعية، والسياسية، والحضارية. وقد كانت الجزائر حديثة عهد بالاستقلال الذي وجه المجتمع إلى فكرة البناء والتشييد، وترميم مختلف الانكسارات التي سببها الاستدمار الفرنسي. وقد علا شأن الثورة كمنهج للبناء، ولا نعني بها الثورة المسلحة، وإنما هي ثورة تأسيس واقع آخر، تمارس فيه الحريات، وتصان الحقوق...ويتوافق كثير من الدارسين على أن الاستقلال لم يحقق كل شيء. بل إن بعض مظاهر الخيبة كانت موجودة، لأن بعض الذهنيات لم تتغير. وعلى المستوى الإبداعي، لم يكن الأدب قد نضج بالشكل المطلوب الذي يواكب به حركات التحول على المستوى العربي والعالمي. لأن «أدب مرحلة ما قبل الاستقلال كان مهتما بالدفاع عن البلاد، واستقطاب الهمم للدخول في المعركة لاسترداد الوطن وطرد المحتل، هذه هي ميزة أدب تلك المرحلة، وإن كان يتسم معظمه بالسطحية، لأن الأديب في ذلك الوقت لم تتح له الفرصة لتعميق وعيه الشمولي بالكون والواقع، بالإضافة إلى ذلك فإن ثقافة هؤلاء الأدباء تقليدية بحيث كانوا صدى للثقافة الدينية المنتشرة في المشرق العربي وأبناء مخلصين لثقافة الزوايا والكتاتيب، والمساجد ثم أضيف بأن هؤلاء الأدباء كانوا ينظرون إلى الثورة على أساس أنها تنحصر في طرد المستعمر بغض النظر عن محاربة ثقافته الإقطاعية المحلية والبرجوازية الوطنية» [1]. ويمكن الاختلاف مع هذه الفكرة من حيث الطرح؛ لأن الوعي الثقافي الذي اكتسبه الشعب الجزائري بمختلف فئاته المثقفة وغير المثقفة كان دينيا بامتياز. وكل الدارسين يعرفون هذه الظروف، وهي ليست وبالا على المجتمع الجزائري، بقدر كانت صمام أمان حافظ على مقومات هويته، وانتمائه الحضاري. وعقلية الأدباء في تلك المرحلة لم تكن متخلفة، بل كانت نيرة تملك مشروعا ثقافيا هادفا. «أما بعد الاستقلال فإن الوضعية تغيرت وإن كانت بعض البصمات المتخلفة لا تزال تضغط على إنتاجها الأدبي لكن مهام البناء الوطني التي شرع في ممارستها على صعيد الواقع، والمتمثلة في خوض معركة التعريب، واسترجاع الثروات الوطنية، وتعميم ديمقراطية التعليم، وتأسيس وتنظيم هياكل الدولة وبناء القرى الاشتراكية في إطار الثورة الزراعية، وتعميم الطب المجاني. هذه المهام في الداخل بالإضافة إلى التفتح على العالم لمساندة كفاح الشعوب المظلومة، ومناهضة السياسات الرجعية والاستعمارية. هذه المحاولات الجادة برمتها ساعدت المثقفين والأدباء على تغيير موقفهم من الكتابة وبالتالي عمقت وعيهم بضرورة اعتبار الكتابة الإبداعية الأدبية سلاحا من أسلحة البناء، وهدم البنى المتخلفة في آن واحد.» [2]. وليس من الصواب تقديم أحكام مطلقة حول نجاح مشروع المد الاشتراكي، بكل الإنجازات المحققة على أرض الواقع؛ فقد أنتج عقلية اتكالية غير متطلعة إلى المستقبل. وقد أبانت الفترات الموالية عن ذلك. وإن كانت في بدايتها منعطفا حاسما أنسى فئات الشعب المسحوقة غطرسة، وجبروت

[1]) أزراج عمر: الحضور. مقالات في الأدب والحياة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1983. ص217.
[2]) أزراج عمر: الحضور. ص217-218.

الاحتلال الفرنسي، فكان الفلاح سعيدا بأرضه، وقريته الفلاحية، وتعليم أولاده، وعلاجه بالمجان...

والتأخير الحاصل في ظهور أدب جزائري أسبابه معروفة. وإن كان هذا التأخر أسهم في عدم تبلور فكرة الأجناس الأدبية الحديثة بشكل الفني المتقدم. إلا أن القدرة على الاستيعاب، والمواكبة كان حاضرا في مسيرة الأدب الروائي الجزائري. و«صحيح أن الرواية الجزائرية حديثة العهد بالظهور، والمكتوبة منها باللغة العربية أكثرها حداثة، إلا أننا نستطيع القول إنها منذ ظهورها الأول قد اقتحمت الساحة الأدبية بشكل قوي، فإذا ما استثنينا المحاولات الأولى البسيطة والمتمثلة في (غادة أم القرى)، (الطالب المنكوب)، (الحريق)، فإن (ريح الجنوب) تبقى تلك الرواية الناضجة التي أعلنت البداية الحقيقية القوية للرواية الجزائرية باللغة العربية» [1]

وبقليل من التمعن في هذه الأسباب الموضوعية، يمكن الجزم بأن التأخر الذي حصل في نشوء وتطور الفن الروائي في الأدب الجزائري العربي، لم يجن عليه فنيا بشكل كبير؛ إذ سرعان ما حقق لنفسه مكانة ليست بالهينة في ساحة الإبداع الروائي العربي والعالمي. «إن مرور حوالي عقد من الزمان في عهد الاستقلال قبل ظهور الرواية العربية الجزائرية الأولى أمر طبيعي اقتضته ضرورة التمرس بهذا الفن المعقد، ودعت إليه الحاجة إلى دراسة الأوضاع الاجتماعية الناجمة عن الثورة الجزائرية، والمترتبة على استرجاع الشعب الجزائري لسيادته الوطنية. وهذا الوقوف عند الماضي الثوري، وعند ما نجم عنه من أوضاع سياسية واجتماعية خاصة، هو الذي جعل فننا الروائي يتجه في بداية الأمر إلى الثورة يستقي منها ومن بطولاتها موضوعاته الأساسية» [2] .

وسرعان ما ظهرت أسماء جزائرية متمرسة في فن التعبير الروائي، اعتمدت التقليد كخطوة أولى، ثم حلقت في فضاءات رحبة، صانعة أسماءها، متميزة بفنها. ولعل الأسماء كثيرة ومتعددة لا يمكن أن نذكرها جميعا في هذه العجالة، منها: عبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطار، جيلالي خلاص، رشيد بوجدرة، واسيني الأعرج، أحلام مستغانمي، الحبيب السائح...ويمكن أن نشير إلى بعض الأعمال الأولى التي كانت نقطة انطلاق في التعبير الرائي بالمفهوم النقدي المعاصر. وقد توخت البناء السردي الذي يتأسس على فعل درامي إلى حد ما، «لذلك فإن البدايات الحقيقية التي يمكن أن تدخل في مفهوم الرواية هي التي ظهرت منذ سنوات قليلة، أي في السبعينات مثل قصة ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار. ثم رواية ريح الجنوب للكاتب القصصي عبد الحميد بن هدوقة التي كتبت فيما يبدو قبل السابقة ولكنها طبعت بعدها، ثم ظهرت في السنتين الماضيتين روايتان للطاهر وطار وهما على التوالي الزلزال ثم اللاز.» [3] .

إن التشبع الثوري الذي ميز مختلف مسارات الأدب الجزائري عبر الظروف التاريخية التي مر بها، لم يزُلْ بعد الاستقلال، بل إن الرؤية الثورية كانت تغذي مختلف البنى

[1]) مصطفى فاسي: دراسات في الرواية الجزائرية. دار القصبة للنشر. الجزائر2000. ص3.
[2]) عبد الله ركيبي: الرواية العربية الجزائرية الحديثة. بين الواقعية والالتزام. الدار العربية للكتاب 1983. ص8.

[3]) عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. ص201.

السردية الروائية الجزائرية في مرحلة السبعينيات وما بعدها، وكأن الهاجس الثوري في هذه الأعمال هو الفيصل في نجاح العمل الروائي، أو فشله. ويبدو أن السبب متعدد الأوجه. فمن جهة، كان لعظمة الثورة التحريرية صدى كبير في الوجدان الشعبي الجزائري. ومن جهة أخرى كثرة الإخفاقات، والفشل في تحقيق بعض أهداف تلك الثورة على الواقع غداة الاستقلال، جعل الأدباء يستنطقون الثورة والكفاح، باحثين عن سبب الإخفاق.

مع الإشارة إلى أن كثيرا من الأعمال الروائية مالت إلى تبني المشروع السياسي، وراحت تذيع تفاصيله، مسترشدة بإنجازات الثورة الزراعية، وغيرها من المكتسبات التي حاولت النهوض بالمجتمع وفق رؤية اشتراكية عمالية. وقد جاءت أعمال عبد الحميد بن هدوقة الأولى ضمن هذا المسار. و« النشأة الجادة لرواية فنية ناضجة ارتبطت برواية ريح الجنوب وقد كتبها عبد الحميد بن هدوقة في فترة كان الحديث السياسي جاريا بشكل جدي عن الثورة الزراعية، فأنجزها في (5 نوفمبر 1970) تزكية للخطاب السياسي الذي كان يلوح بآمال واسعة للخروج بالريف من عزلته، ورفع الضيم عن الفلاح، ودفع كل أشكال الاستغلال للإنسان، وسرعان ما تكرس ذلك الخطاب الطويل – الذي هلل له الإعلام كثيرا – في قانون الثورة الزراعية الصادر رسميا في (8 نوفمبر 1971)» [1] . ونسعى إلى دراسة بعض النماذج والتجارب الروائية، منها.

[1]) عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث. ص198.